

المادة التراجمية في مخطوط "كعبة الطائفين" للشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني (11هـ/17م)
مقاربة في البنية والمنهج والمصدر

The Biographical background in the *Ka'ba'ū al-Taāifīna* de Sheikh
Muhammad Ben Slimane Al-Saim Al-Tilimsānī (XXI AH / XVII AD)
An approach of the structure, the method and the resource

الأستاذ الدكتور: قويدر قيداري

Prof :Kouider Kaidari

جامعة مصطفى اسطembولي، معسكر (الجزائر)، kouider.kouider@univ-mascara.dz

تاريخ النشر: 2023/07/13

تاريخ القبول: 2023/05/20

تاريخ الاستلام: 2023/03/01

الملخص: سنسعى من خلال هذه الدراسة لمقاربة النص التراجمي في مخطوط "كعبة الطائفين" للشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني (11هـ/17م)، من حيث البنية والمنهج والمصدر، وعليه سنحدد بنية تلك المادة التراجمية، وسنقوم بتحليل طبيعة هذه المادة من الناحية الأنثروبونيمية؛ بتحليل الألقاب والنعوتات التي كان يصيغها على تراجمه، كما سنتناول جغرافية المادة التراجمية ودلالاتها، والتي توزعت بين المحلية والوطنية والعربية، أما المجال الزمني فالمخطوط يترجم لأعلام القرن 11هـ/17م، وهو عصر يعد فقيرا في باب التراجم والسير الجزائرية. وسنتناول في الأخير مصادر المادة التراجمية المناقبية من حيث أنواعها وأهميتها، وهاهنا نؤكد بأن "المخطوط" هو مصدر وأصل لا نظير له في تراجم هؤلاء الأعلام، حيث استقى المؤلف أخبارهم من مصادر متنوعة؛ تراوحت بين المنطوق والمكتوب.

الكلمات المفتاحية: التراجم - المناقب - مخطوط "كعبة الطائفين" - البنية - المنهج - المصدر.

Abstract : Through this study, we will seek to address the text biographical background of the manuscript *Ka'ba'ū āl-Taāifīna* de Sheikh Muhammad Ben Slimane āl-Ṣāīm Tlemceni, in terms of structure, method and sources. We will therefore determine the layout of this biographical background and we will analyze it from the anthroponymic side, by studying the names and attributes that it used to present the biographies and space (geography) and time (the History) which are inherent to them. Ultimately, we will examine the sources of this biographical background, listing its types and importance, where the author gathered his information from both oral and written sources ".

Keywords: biographies, virtues, manuscript, *Ka'ba'ū al-Taāifīna*, structure, approach, source.

1. مقدمة:

«كعبة الطائفين» كتاب تصوف بالدرجة الأولى، وكتاب تراجم بالدرجة الثانية، وهو من المصادر المهمة في تاريخ الجزائر بعامة والمجتمع التلمساني بخاصة، يندرج تحت هذا النص التراثي الصوفي التلمساني نصيب معتبر من "المادة المناقبية"، وهي على قدر كبير من الأهمية العلمية في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية. سنقوم من خلال هذا العمل باستنطاق الناحية المتعلقة منه بتراجم الأعلام وسير الشيوخ؛ حيث أرخ المخطوط لعدد لا يستهان به من علماء تلمسان وصلحائها، ومناطق أخرى من الجزائر وخارجها في ق11هـ/17م، أدركهم المؤلف نفسه، أو تتلمذ عليهم، أو أدرك بعض من أصحابهم حيث وصف أحوالهم ومقامهم في العلم والصلاح، خصوصا أولئك الذين كانوا غفلا في كتب التراجم والسير، أو كانت المعلومات عنهم شحيحة. لقد اعتمدنا في مقاربتنا لهذا الموضوع على منهج استقرائي وظيفي؛ جمع بين استقراء المادة التراجمية المناقبية التي وردت في مخطوط "كعبة الطائفين"، ووصف مضامينها، وتحديد بنيتها العامة، التي تشكلت من ثلاثة أجزاء مع تفسير خلفيات ذلك وسياقاته، وعرضنا لتحليل المرتكزات التي بنى المؤلف على أساسها منهجه العام في عرض النص المناقبي، وإبراز بعدها الوظيفي، وناقشنا المصادر التي استقى منها مادته تلك وخصوصيتها وأهميتها.

لمخطوط "كعبة الطائفين" قيمة كبيرة في باب كتب التراجم والسير التلمسانية والجزائرية، حيث يمدنا بمادة تراجمية ومناقبية ضخمة غطت القرن (ق11هـ/17م) على امتداده، المادة العلمية الموجودة حول تلك الأعلام في الغالب الأعم لا مصدر لها سوى المؤلف، مما يؤهل كتاب "كعبة الطائفين" ليكون مصدرا وأصلا لا نظير له في تراجم هؤلاء الأعلام، وهو يمثل أيضا من حيث الأهمية الحلقة الثانية في كتب التراجم والسير التلمسانية بعد كتاب "البستان" لابن مريم التلمساني (ق10هـ/16م)، ومن هنا تتجلى قيمته العلمية.

2. التعريف بالمؤلف محمد بن سليمان ومخطوطه "كعبة الطائفين":

1.2. المؤلف الشيخ محمد بن سليمان الصائم التلمساني:

يفيدنا المؤلف محمد بن سليمان في آخر الجزء الثالث من مخطوط "كعبة الطائفين" أنه من مواليد سنة 1014هـ/1605م. ولا ندري متى توفي على وجه التحقيق؛ لكن من خلال ما ورد في مخطوطه من اشارات وتواريخ، نستنتج أن المؤلف محمد بن سليمان كان حيا إلى سنة 1066هـ/1656م، فهذه السنة هي آخر تاريخ يذكره في كتابه. (الصائم التلمساني، الصفحات 264-272)

ربما يكون قد عاش إلى أواخر القرن 11هـ/17م، فهو يذكر ذلك صراحة في النص الآتي: «..بل لن تجد في هذا الشطر الأخير من القرن الحادي عشر إلّا العقارب واللفّاع». (الصائم التلمساني، صفحة 264)، ربما يقصد المؤلف بالشطر الأخير، الربع الأخير أو النصف الأخير من القرن 11هـ/17م.

لقّب المؤلف بـ "الجزولي" تيمنا وتبرّكا بالشيخ الصوفي المعروف، صاحب كتاب «دلائل الخيرات» أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، وصرح المؤلف كذا من مرة في كتابه بهذه النسبة، من ذلك قوله: «..أنشد الشيخ الكامل سيدي محمد بن سليمان الجزولي رحمه الله، ونفعنا بتسميتنا عليه..». (الصائم التلمساني، الصفحات 12-25) عاشت أسرته بحاضرة تلمسان في القرن 11هـ/17م، يخبرنا المؤلف أن والده سليمان يلقب بـ (الصائم)، (الصائم التلمساني، صفحة 300) وقد زهد في ثروته وجاهه بعد تويته، وخالط أهل العلم والتصوف، وكرس حياته للقرآن والعلوم الدينية (الصائم التلمساني، الصفحات 96-98)، وحج وجاهد وسهر على تربية ابنه (المؤلف)، تربية دينية صوفية.

في هذه البيئة العائلية الصالحة التي تحترم أهل الولاية والصلاح والعلم، نشأ الشيخ محمد بن سليمان، فكانت نظرته للحياة والرجال تتجه في المقام الأول إلى الجانب الروحي.

من حيث ثقافته أورد في كتابه "كعبة الطائفين" معلومات مفصلة عن تكوينه العلمي والثقافي، ومن ثمة يمكننا أن نؤشر مساره الثقافي في هذه النقاط (الصائم التلمساني، الصفحات 264-266):

- حفظ القرآن الكريم وهو في سن الثامنة بقراعتي ورش وقالون، رسما ورواية، وختمه ثمان مرات رسما وأداء.
- انتقل بعد ذلك - كما قال - لـ "دار العلم والتقوى" بقرية مجاجة، فزاد هناك ختمة أخرى للقرآن الكريم، وقرأ عقائد السنوسي الثلاث، والأجرومية، والقرطبية، على الشيخ سيدي عمر أترار، وسنّه يومئذ أحد عشر سنة.
- ثم قفل المؤلف راجعا إلى تلمسان، وصار يقرأ القرآن بروايته ورش وقالون على الأستاذ سيدي عمر بن يوسف، وعلى شيخه سيدي الحسن الدراوي المغربي، ويذكر المؤلف أنه حفظ الربع الأول من رسالة ابن أبي زيد بشرح الفاكهاني، على الشيخ سيدي الحاج محمد بن قاسم المويل، كما كان يحضر في مجلس اقراء سيدي محمد الغشوي على (الرسالة)، وصحيح البخاري، وتفسير القرآن للثعالبي والسيوطي، وحكم بن عطاء بشرح بن عباد النفزي.
- لقّبه الشيخ بلقاسم الدراجي في تلمسان بـ "مالك الصغير" لشدة نبوغه في الفقه المالكي.
- قرأ مختصر ابن الحاجب على شيخه سيدي محمد بن رحمة، وقرأ أحكام القرآن في الجامع العتيق بأجاديير، ومختصر خليل، والألفية، والتلمسانية، والرسالة، والسلم في المنطق، والسراج للشيخ سيدي عبد الرحمن الأخصري.

- وقرأ أيضا صحيح البخاري على الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي أنكروف، وحضر عنده في اللامية والخزرجية، وكان ملازما لمجلس إقراء شيخه العبدلي في الحديث والتفسير والحكم العطائية ومختصر خليل.
- بطلعنا المؤلف أنه سافر إلى مستغانم، واحتك بطلبة العلم فيها، وقرأ هنالك على يد خيرة علمائها، منهم الشيخ بلقاسم بن عثمان الولايجي، والشيخ محمد الزهري.. وبز أقرانه في كثير من العلوم، حتى صار المؤلف كما قال: «أدلول في جميع ما قرأت بمستغانم».
- زار المغرب الأقصى، حيث دخل وجدة وصاحب بعض مشايخها وصلحائها، كما دخل فيجيج، ونزل بزواية العبيد، وحضر مجلس إقراء الشيخ حدّوش بن موسى البريشي، وسيدي محمد الحاج السلاوي، وسيدي محمد الشّموري، وغيرهم.
- بعد هذه الإطلالة على المسار الثقافي للشيخ محمد بن سليمان وتكوينه العلمي، كما سجله بنفسه في كتابه، آن لنا أن نتحدث عن طبيعة ثقافته من حيث هويتها، ومستواها، وملامحها:
- كان للشيخ اطلاعا متميزا على كتب التاريخ والمصادر الفقهية والصوفية وغيرها، هذا ما تؤكد اقتباساته الكثيرة، وللمؤلف أيضا اقتباسات مكثفة ومتكررة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات مخطوطه من هذين المصدرين.
- ثقافته هي ثقافة معاصريه، يغلب عليها الطابع الصوفي ويقل فيها الإبداع، شأن الجو الثقافي العام السائد في بلادنا بعامة، وتلمسان بخاصة في ق17م، حيث اكتفى العلماء آنذاك بدراسة أعمال السابقين، بنظرة يغلب عليها التقديس المفرط، فكثرت الشروحات والمختصرات في أعمالهم (سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 1981ب، صفحة 15) كما هو حال كتاب «كعبة الطائفين» الذي انبرى فيه مؤلفه لشرح قصيدة شعبية صوفية لشيخه موسى بن علي اللاتني، مصبغا عليها كثيرا من الهالة والقدسية.
- اتسمت ثقافته بالمحلية (تلقيًا وقراءة) إلى حد بعيد، فقد ألهم كتب الشيخ السنوسي لاسيما "العقائد" حفظا ودراسة، وأتقن القراءة بورش رسما ورواية، وتمكن من مختصر خليل والأجرومية والقرطبية ورسالة أبي يزيد، وتفسير الثعالبي، وحكم بن عطاء بشرح بن عباد النفزي، ومختصر بن الحاجب، والتلمسانية، وكتب عبد الرحمن الأخضرى.. لهذا نقول إن ثقافة المؤلف في عمومها يرتبط النصيب الأكبر منها بالثقافة المحلية.
- يوقفنا المخطوط على غزارة ثقافة صاحبه، حيث تبدو ظاهرة الجمع بين عدة علوم ومعارف بادية للعيان، - وإن كان منطلقه صوفيا كما أسلفنا - ففيه الأخبار والأنساب والتراجم والمناقب، والتفسير والفقه والحديث، وعلم الحروف

والجدول، والأمثال والحكم والشعر الفصيح والشعبي، والحكايات والنوادر والطرائف، والكرامات والرؤى، والاستطرادات المتنوعة، وما ضخامة الكتاب بأجزائه الثلاثة إلا دليلا على هذا المسار الذي سلكه.

- تتجلى في الشيخ ظاهرة الحفظ، فيبدو أن له ذاكرة قوية، استوعبت الأعلام بأسمائها وألقابها وكنياتها وتواريخها، واستوعبت كثيرا من معارف عصرها، وهذا ليس غريبا على المؤلف فقد عرفناه كما سلف يحفظ القرآن بروايتين، فضلا عن الأجرومية والقرطبية وعقائد السنوسية، فقد كان رحمه الله حافظا من الطراز الأول.

2.2. التعريف بمخطوط «كعبة الطائفين» وبقيمته العلمية:

يمثل «كعبة الطائفين» اهتمام أهل تلمسان بكتابة تاريخهم ومآثر أعلامهم وتدوين ثقافتهم الصوفية وأدبهم الشعبي في فترة من فترات تاريخ الجزائر العثمانية، وتحديدًا في بحر القرن (11هـ/17م) الذي اتسم عموما بالاضطراب السياسي والاجتماعي والركود العلمي وقلة الإنتاج والكتابة، والكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء ضخام.

وجدير بالذكر أن منطلق الكتاب قصيدة شعرية شعبية صوفية، نظمها شيخ المؤلف موسى بن علي اللاتني، أحد صوفية تلمسان وشعرائها في القرن (11هـ/17م)، سماها ناظمها قصيدة "حزب العارفين"، عهد بها إلى تلميذه محمد بن سليمان وأكد عليه بكتابتها وحفظها وتدبيجها بشرح يقرب معانيها ويكشف غوامضها ويبرز جواهرها.

من حيث قيمة المخطوط وأهميته، يتضح لنا أنه ينقسم إلى قسمين:

- قسم يبدو أن صاحبه لم يأتي فيه بجديد، فهو عبارة عن حشد هائل لنصوص وأقوال واقتباسات لمن سبقه من العلماء والصوفية والفقهاء، إلى حد الاستطراد، أورد كلامهم في سياق شرحه لقصيدة شيخه سألقة الذكر، وتعزيزا لما تتضمنه من رقائق وحقائق، وتراجم، وآراء آمن بها ناظمها.

- وقسم سجل فيه المؤلف مشاهداته واحتكاكه بالأولياء والصلحاء بتلمسان وما جاورها من البلدان، رصد فيه بعض آرائه فيما يخص القضايا التي عاصرها، والأحداث التي عايشها، وهذا القسم في نظرنا هو الذي يعطي للمخطوط أهميته.

وعليه نقول إن لمخطوط «كعبة الطائفين» قيمة كبيرة تتجلى أهم مظاهرها فيما يلي:

المخطوط مصدر من المصادر المهمة في تاريخ الجزائر بعامة والمجتمع التلمساني بخاصة، تردد ذكره في كتابي «تاريخ الجزائر الثقافي» (ج1/2)، و«آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر» لأبي القاسم سعد الله كمصدر أساسي في عديد المرات، وجاء «كعبة الطائفين» ليغطي فترة دقيقة من تاريخنا، تعد في نفس الوقت فقيرة من حيث المصادر التاريخية، مما يكسبه أهمية خاصة:

من حيث أهميته السياسية، يشير المخطوط إلى إثنتين بين أهالي تلمسان والسلطة التركية، وقعت الأولى سنة 1035هـ، والثانية كانت بعدها بسنتين؛ أي في 1037هـ. ويطلعنا عن العلاقات بين المغرب والسلطة التركية في الجزائر بشكل غير مباشر، من خلال حديثه عن أحداث ثورة عام 1037هـ. (ينظر التعليق الأول) (سعد الله، 1986، صفحة 17) (ابن المفتي، 2009، صفحة 48)

كما تحدث عن وقوع مدينة وهران تحت الاحتلال الإسباني، وما صاحبها من معارك، (الغزوات كما يسميها) التي شارك فيها المؤلف محمد بن سليمان الصائم بمعية والده والشيخ العبدلي وبعض صلحاء تلمسان لتحرير وهران من قيد الإسبان، وعلى العموم أشار كثيرا إلى صعوبة الأوضاع، وحالة الاضطرابات السياسية في تلمسان أثناء ق 17م.

ومن الأحداث التي أشار إليها المؤلف، ذلك الوباء الذي أصاب أهالي تلمسان سنة 1058هـ/1648م والذي تسبب في موت عدد من العلماء، ذكر بعضهم، يقول في هذا السياق: «نذكر من فقدناه من الأخلاء العلماء بالوباء سنة ثمان وخمسين..» (الصائم التلمساني، صفحة 197).

فيما يخص الجوانب الاجتماعية والأنثروبولوجية حفظ لنا المخطوط صورة المجتمع التلمساني بإيجابياته وسلبياته، وبعض عوائده، وأسلوب حياة الناس وتقاليدهم، وشيئا من لهجتهم في تلك الحقبة (ق 17م)، وسجل لنا مدى ارتباطهم بأوليائهم وعلمائهم. (الصائم التلمساني، صفحة 366)

بالنسبة للجوانب الدينية والثقافية يقدم «كعبة الطائفين» مادة مهمة وغنية للباحثين في مجال الحركة الثقافية والصوفية، حيث يزودنا بمعلومات عن طبيعة النشاط العلمي والديني بمدينة تلمسان، ودور المؤسسات الدينية والتعليمية بها في القرن 11هـ/17م، والمصنفات الفقهية والصوفية التي كانوا يتدارسونها في مجالس العلم والإقراء، وحلقات الحضرة (السماع الصوفي) التي كانوا يمارسونها بشكل دوري كإحدى أبرز الطقوس الصوفية.

حديثه عن ألوان من السجال العلمي في حياته، كمنقاش العلماء وحوارهم في بعض المسائل العلمية بالجامع الأعظم (الجامع الكبير)، من ذلك كلامه عن ظاهرة الانتحال والدس في كتب العلماء.

إشارته إلى بعض المساجلات العلمية بين الصوفية، كتلك التي كانت بين سيدي عبد القادر بن محمد (1533م/ 1616م)، المدعو (سيدي الشيخ) جد أولاد سيدي الشيخ، ومؤسس الطريقة الشيعية وصاحب القصيدة المشهورة المسماة «الياقوتة في التصوف» وابن أبي مَحَلِّي أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي، صاحب كتابي «الإصليت» و«منجنيق الصخور، لهدم بناء شيخ الغرور، ورأس الفجور» (ينظر التعليق الثاني)، (بوزيان، 1987،

الصفحات 66-79) (المهدي الفاسي، 1994، صفحة 36) ويبدو أن الكتابين الأخيرين، والياقوتة في التصوف - السالفة الذكر - هي من مظاهر هذا السجال.

احتفظ المخطوط بأسماء علماء وصوفية تلمسانيين، وجزائريين، ومغاربة (من وجدة وفاس تحديدا) ساهموا بدورهم في الحركة الصوفية والعلمية بالمدينة، ومارسوا مهامها التعليمية ودينية بها، مثل التدريس والخطابة والفتيا، والتربية الصوفية.

يقدم لنا مخطوط «كعبة الطائفين» صورة واضحة عن تلمسان من حيث جوانبها العمرانية في (ق17م)، فالمؤلف جاب مختلف زقاق المدينة ودروبها، ومختلف المساجد والمقامات والزوايا والأضرحة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى يفيدنا بمعلومات ووصف للجهات التي زارها خارج تلمسان: مستغانم، غليزان (قرية مجاورة وزاويتها)، تيموشنت (جامع سيدي يعقوب الحاج بولهاصة)، الصحراء (يقصد بها الجنوب الغربي للجزائر)، كما أورد المؤلف وصفا ومعلومات عن بعض المدن الجزائرية الأخرى، وإن لم يذكر أنه زارها (قسنطينة، عنابة، أدرار، توات..)، وزار أيضا جهات من خارج الوطن (فجيج، وجدة) بالمغرب. (ينظر التعليق الثالث)

يحتفظ لنا المخطوط بسجل حي وضخم لتراثنا الشفوي (الأدب الشعبي) في ق17م، وإن لم يكن من بين مزاياه إلا هذه المزية (حفظ ذاكرتنا الشعبية) لكفاه ذلك أهمية وقيمة.

يمكن للباحث أن يستخرج منه قصائد، بل دواوين في الشعر الشعبي الصوفي، وفي شعر المناقب:

__ شعر الشيخ موسى اللالتي، صاحب قصيدة "حزب العارفين" موضوع الكتاب.

__ شعر المؤلف محمد بن سليمان (الفصيح منه والشعبي).

__ شعر كثير لعلماء وصلحاء من تلمسان، الذين احتك بهم المؤلف مباشرة أو عن واسطة.

يشير المؤلف محمد بن سليمان إلى الشعر الكثير الذي أنتجه الشيخ اللالتي، وهو في أغلبه شعر شعبي. (الصائم التلمساني، صفحة 257)

3. قيمة مخطوط "كعبة لطائفين" وأهميته في ميدان التراجم التلمسانية:

لقد طاف محمد بن سليمان الصائم في كثير من المدارس والزوايا، داخل تلمسان وما جاورها من البلدان، وسبر أعلام العصر في مختلف الفنون والعلوم، حيث ذكر لنا المؤلف محمد بن سليمان الكثير من المشايخ والعلماء والصلحاء، الذين أخذ عنهم، أو سمع منهم، أو سمع ممن سمع منهم، فاستخرجنا ما يشبه فهرسا تضمن ذكر معظم الشيوخ الذين تتلمذ لهم المؤلف ولازمهم، أو جلس في مجالس إقرائهم، أو ذكروهم في مسائل فقهية أو صوفية أو في

فائدة اجتماعية عامة، تخص ساكنة تلمسان وأحوازها، وانتفع بهم، أو ممن تبرّك بهم المؤلف واستفاد من دعائهم الصالح.

لذلك يبدو مخطوط "كعبة الطائفين" في جانبه المتعلق بالتراجم أقرب إلى ما يسمّى بـ: المشيخة، فقد كان الأوائل المتقدمون يطلقون لفظة "المشيخة" على الجزء الذي يجمع فيه المحدث أسماء شيوخه ومروياته عنهم، ثم صاروا يطلقون عليه بعد ذلك "المعجم" لما صاروا يفرّدون أسماء الشيوخ ويرتبونها على حروف المعجم، فكثرت استعمال وإطلاق المعاجم مع المشيخات، وأهل الأندلس يستعملون ويطلقون البرنامج، أما في القرون الأخيرة فأهل المشرق يقولون إلى الآن "الثبت"، وأهل المغرب إلى الآن يسمونه "الفهرسة". (الكتاني، 1982، صفحة 67)

فإذا كان ابن مريم المديوني التلمساني صاحب "البستان" (ابن مريم، 1986) قد غطى في ترجمته لأعلام تلمسان وأوليائها فترة طويلة امتدت إلى عهد قريب من الشيخ المؤلف محمد بن سليمان نفسه (ق16م)، فإن مخطوط "كعبة الطائفين" يكمل بدوره المسيرة والمسار ليغطي عصره أيضا، أي (ق17م)، لذلك فالكاتبان مصدران أساسيان وحلقتان متتابعتان في باب كتب التراجم والسير التلمسانية الجزائرية حول العلماء والأولياء والصلحاء.

يندرج تحت هذا النص التراثي الصوفي التلمساني نصيب معتبر من "المادة المناقبية"، وهي على قدر كبير من الأهمية العلمية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، خاصة ما تعلق منها بالمعطيات التاريخية والأنثروبولوجية والعمرانية المهمة والنادرة، ومن هنا تكمن أهمية هذا النوع من التراث المناقبي، والذي سيساهم إذا أحسن استنطاقه وتيسرت سبل قراءته في تجلية الكثير من الجوانب المخفية من تاريخنا الجزائري، في عصر يصفه الكثير من الباحثين بالشحيح من حيث المصادر.

إن المادة التراجمية التي احتوى عليها المخطوط ستعري الباحث المؤرخ بما تحتويه من معلومات تاريخية متنوعة، وقعت أحداثها في عصر المؤلف جاءت على هامش المادة المناقبية، وهي معطيات لها أهميتها البالغة بالنسبة للمؤرخين.

يعتبر الكتاب في الجانب التراجمي وثيقة نادرة، ولها بالغ الأهمية في تصوير طبيعة المجتمع التلمساني في القرن 17م من حيث تركيبته وشبكة العلاقات الاجتماعية بين فئاته، كما أنه يلقي أضواء على الدور المحوري الذي لعبه رجال الدين والتصوف وأعلام الصلاح في التخفيف من بعض الأزمات، وفي تنشيط الحركة الثقافية في تلمسان القرن 11هـ/17م.

المادة المناقبية الموجودة حول تلك الأعلام في الغالب الأعم لا مصدر لها سوى المؤلف محمد بن سليمان، مما يؤهل كتاب "كعبة الطائفين" ليكون مصدرا وأصلا لا نظير له في تراجم هؤلاء الأعلام.

4- البنية العامة للمادة المناقبية في مخطوط "كعبة الطائفين":

قسم الشيخ محمد بن سليمان كتابه إلى ثلاثة أجزاء (أسفار) استمدادا من نص الحديث النبوي الشريف؛ كما قال، وهو السياق الذي جاء على أساسه هذا التقسيم، يقول الشيخ محمد بن سليمان: «والباعث على تنليته قوله عليه السلام: «خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر، ومع هذا فقد قال: "سابقنا سابق، ومقتصدنا لاحق، وظالمنا مغفور له"، ولذلك: "أرجو أمتي أن تكون ثلثي أهل الجنة"». (الصائم التلمساني، صفحة 226) وعليه جاءت بنية المخطوط على هذا النحو:

- الجزء الأول: في ذكر أهل الصلاح؛
 - الجزء الثاني: في ذكر أهل الطلاح؛
 - الجزء الثالث: في ذكر أهل الصلاح المتحققين، (حزب العارفين). (الصائم التلمساني، صفحة 1)
- يقول الشيخ محمد بن سليمان: "لما أن فرغ الناظم رحمه الله من ذكر السلف الصالح، عقبه بذكر السلف الطالح، تبشيرا وتحذيرا وترغيبا في الاقتداء بالمنعم عليهم من النبيئين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا..وتنفيرا من متابعة المغضوب عليهم ولا الضالين من العلماء غير العاملين والجهلة الظالمين".
- ويشير متحدثا عن مضمون المادة المناقبية في هذا التتليث (الأجزاء الثلاثة للكتاب) ومعلقا في نفس الوقت على قصيدة حزب العارفين التي تضمنت تلك التراجم: «لما أن فرغ الناظم رحمه الله تعالى أولا من ذكر الصحابة والتابعين، ومن التفتيش على الأولياء المتقين، وفرغ أيضا في ثاني حاله من ذكر حزب الجاهلين، كرّ راجعا في آخره إلى طلب حزب العارفين، لأن ذلك مطلوبه ومقصوده، ولذلك وضع هذه القصيدة». (الصائم التلمساني، صفحة 62)

وقد سعى محمد بن سليمان جاهدا -بمعية شيخه- في صحبة العارفين والصالحين وطلبهم في البوادي والأمصار، يقول المؤلف في ذلك: "فناسب تعلق الناظم (موسى اللالتي) بهذا الاسم تفتيشه على حزب العارفين، لأن مسبب الأسباب رتب بحكمته الأشياء على ما سبق به تقديره، فبسبب لقاء العارفين طلبهم في البوادي والأمصار، والتفتيش عليهم بالحواس والأسرار، فمن جدّ وجدّ ومن طلب شيئا ناله أو نال بعضه" (قيداري، 2013، صفحة 91)

ويذكر أيضا أن شيخه موسى اللاتلي أوصاه بعدم الحديث عن الجزء الثاني في حضرة أبناء الدنيا، سدا للذريعة، وقد أخبر المؤلف على لسان شيخه موسى اللاتلي متحدثا عن "أهل الطلاح"، أنه: حوَسَ وساح بقلبه مرة وبقلبه أخرى، ليفتَش عن العارفين المحييين في البوادي والحواضر، فلم يعثر لَهَم على أثر، ولم يقع لهم على خبر، بل لم يجد إلا جاهلاً غيباً ومتفقها غوياً تبطل مجالسته الحسبة بمخالطتهما وتضعفُ صحبته الفطرية بمحادثتهما لجفاوتهما وخشانتهما. (قيداري، 2013، صفحة 93)

5- منهج الشيخ محمد بن سليمان في عرض المادة المناقبية لمخطوطه:

1.5. طريقته في منح الألقاب والنعوتات على تراجمه:

كان الشيخ محمد بن سليمان عند ذكره للأعلام سواء التي نَقَلَ عنها أو تَرَجَمَ لها، يميز بينها من خلال الألقاب والنعوت التي يصبغها عليها، فإذا ذكر شخصية غلب عليها العلم أو الفقه أو الحديث، يمنحها مثل هذه الألقاب: الفقيه، النبيه، الأديب، الأستاذ، النحوي.. وإن ذكر شخصية غلب عليها التصوف والصلاح والاشتغال بأحوال النفس، يمنحها ألقابا مثل: الشيخ، المجذوب، صاحب الأحوال، العابد الناسك، المليح..

وسنعرض هاهنا لبعض هذه الألقاب والنعوت التي كان يصبغها على تراجمه، وبعض دلالاتها ورمزيتها، ويبدو أن هذه المفاهيم تدخل ضمن حقل الدراسات اللسانية؛ وبشكل دقيق في مباحث "الأسماوية" أو الأعلامية (Anthroponymique)، حيث تؤدي تلك الألقاب وظائف دلالية، فهي لا تقتصر على وظيفة تعيين الشخص كدلالة ذاتية (Dénotation)، وإنما قد تؤدي دلالات إيحائية (Connotation) تدل على خصائص الشخص المسمى. (السائح دحماني، 2014، صفحة 8)

فعند تعاطي الشيخ محمد بن سليمان مع الشخصيات التي غلب على ثقافتها وتكوينها، الثقافة العالمية؛ مثل علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو.. كان يصبغ عليها من الألقاب ما يفيد خلفيتها العلمية والمعرفية، بالانتساب إلى تلك العلوم الشرعية واللغوية، وهي تخصصات اكتسبت شرعية في الثقافة الإسلامية منذ فجرها الأول.. ومن أمثلة الألقاب والنعوت التي تدل على غلبة العلم على الحال أو تكافئهما في نصوص تراجم "كعبة الطائفين"، نسوق هذه الشواهد:

وصف المؤلف محمد بن سليمان شيخه بلقاسم بن موسى بن صابر: بالعالم العامل والخطيب المدرس الكامل، وبأنه "عروس الصالحين"، وقال عنه أنه كان ملتزما بالكتاب والسنة في جميع حركاته وسكناته، مولعا بمطالعة كتب التصوف والحديث وعلوم القرآن، متصدرا لتدريس علم التوحيد، وقد سخر ماله للعلماء والمريدين

والفقراء، وكان منزله لا يخلوا من الزائرين والضيوف، وأنه تميز بالكرم الحاتمي، على حد قوله. (الصائم التلمساني، صفحة 186)

وهي شخصية جمعت بين جنباتها الحسنيين، حيث أسبل عليها من صفات العلم، مثل قوله: العالم، الخطيب، المدرس، وهو ما يتوافق مع العلوم التي كان يتقنها (الحديث، علوم القرآن، التوحيد، التصوف) والوظيفة التي كان يضطلع بها (الخطابة، التدريس)، وحباها بصفات الحال (السلوك)، تماشيا مع ما عاينه منها من تجرد وسمتٍ وصلاح وكرم (الكرم الحاتمي) فنعتته بـ "عروس الصالحين".

من ذلك وصفه للشيخ عاشور القسنطيني (ينظر التعليق الرابع) (سعد الله، 1986، صفحة 34) بالفقيه النبيه والحبر والبحر، ويخبرنا أنه كان عالما بالفلك والنجوم والكواكب، ونقل عنه بعض الفوائد المتعلقة بحساب الكواكب والنجوم، كما سجل رأيه في مسألة الأسماء والصفات. (الصائم التلمساني، صفحة 93)

يقول المؤلف: سألت أبي (رحمه الله) عن أشياخه؟ فقال: أما شيخي في العلوم فهو الشيخ الإمام الخطيب سيدي محمد بن عاشور بن الولي الصالح سيدي علي بن يحي السلوكسوني، وعلى يده تاب الله عليّ، وكان إماما في الجامع العتيق من أجادير مدرسا. (الصائم التلمساني، صفحة 10) فقد نعتته بالإمام الخطيب بما يتوافق وخلفيته العلمية والثقافية والوظيفية.

يقول المؤلف: "شيخنا العلامة سيدي محمد بن علي انكروف، الذي كان يدرس في الجامع الأعظم صحيح البخاري، ويخبر المؤلف أنه كان أيضا متبحرا في علم الفلك.

ويقول أيضا حضرت مجلس شيخ الإسلام مفتي الأنام الخطيب الإمام سيدي محمد الحاج بن سيدي قاسم الموبل في تدريسه لجامع البخاري بالجامع الأعظم بتلمسان، وكان ماهرا في الحديث وحوله الفقيهان النبيهان الأديبان اللبيين. (الصائم التلمساني، صفحة 92) تبدو هذه الألقاب وتلك الوظائف التي أسبلها على المترجم له كافية لتضعه في خانة العلماء، الذين غلب على نشاطهم العلم تلقينا وتدرسا، وبكفي أنه كان إماما ومدرسا بالجمع الأعظم بتلمسان.

ومما يدخل في هذا السياق من النعوتات والألقاب، نسوق هذه الشواهد من مخطوط "كعبة الطائفين":

- "حدثنا الفقيه العالم المفتي المدرس شيخنا المحقق سيدي محمد بن سيدي قاسم الموبل في مجلس إقرائه.. "سيدي عبد العزيز بن سيدي الموفق بن عبد الرحمن بن موسى"، وصفه المؤلف باسم الفقيه والمحدث. (الصائم التلمساني، الصفحات 4-17)

- "وحدثنا الشيخ الأستاذ المحقق سيدي عيسى البوسعيد الهنتاتي.. (قيداري، 2013، صفحة 115)

- وصف المؤلف "الشيخ محمد بن أحمد السوسي بالأستاذ النحوي الفصيح.." (الصائم التلمساني، صفحة 12)
- ومن ذلك وصف المؤلف للشيخ سيدي سعيد المقرئ بأنه "شيخ الشيوخ وحجة الإسلام ومفتي الأنام"، ونقل من خط يده، (الصائم التلمساني، صفحة 186) وسعيد المقرئ هذا، هو من أسهم في تكوين ابن أخيه أحمد المقرئ صاحب «نفح الطيب»، تكويناً موسوعياً وأدبياً، بعد أن قرأ عليه سنوات طويلة، وقد كان سعيد المقرئ غزير العلم مبرزاً في فنونه لاسيما الفقه والحديث، استمر مفتياً أزيد من ستين سنة. (المقرئ، 1983، الصفحات ص-ط) ووصف محمد بن سليمان نجل سعيد المقرئ الشيخ محمد بن سعيد المقرئ بالفقيه والمحدث الوجيه.. (الصائم التلمساني، صفحة 186)

ومن أمثلة الألقاب والنعوت التي تدل على غلبة التصوف والسلوك والأحوال على العلم والفقه في نصوص تراجم "كعبة الطائفين"، نسوق هذه النصوص:

يقول المؤلف:

"وأما شيخي في الطريقة فهو الشيخ الكامل الرباني سيدي عيسى بن محمد الدنيدني.." "حدثني تلميذ سيدي محمد القومي الفقير الأبر الناسك الحاج بن عبد الرحمن بن المرباط الخراساني التلمساني". كان الشيخ البركة سيدي قدور بن محمد بن عبد الجبار إذا طلبت منه الدعاء الصالح.. (الصائم التلمساني، الصفحات 11-10)

"-لقيت- العابد العامل سيدي محمد بن عبد الرحمن الروخاني الوجدي رحمه الله يوم الرابع من شهر الله المحرم، وفي مضيفه أيضا لحق به ولي الله الملبح العابد الناسك الزاهد محبنا ومحبوبنا ومستخلفنا سيدي يخلق بن محمد.." (الصائم التلمساني، صفحة 222)

وهي صفات ونعوت تطلق على من غلبت على معالم شخصيته الصلاح وأحوال المنازلات والسلوك والتربية والتبرك وطبعها بميسمها، وقد لاحظنا ذلك في ثنايا تلك النصوص التراجمية الكثيرة، وفي سياقات مختلفة من مخطوط "كعبة الطائفين"، فعندما يكون الشيخ محمد بن سليمان بصدد بناء نصه المناقبي حول شخصية استهلكتها الثقافة الصوفية ممارسة وسلوكا وتلقينا، نجده يلجأ إلى ما يفيد هذه الخلفية نعتا ودلالة، فتتردد ألقابا وتوصيفات من قبيل: الشيخ الكامل، الرباني، الفقير، الأبر، الناسك، الشيخ البركة، العابد العامل..

على أن المؤلف بن سليمان الصائم كان يركز في تراجمه على الفوائد العلمية والتربوية التي يتلقاها على يد هؤلاء الأعلام، وفي مرات كثيرة كان يذكر اسم العلم، ثم يُتبعه بفائدة أو حكمة تلقاها عنه، يقول المؤلف في هذا

السياق: وإنما كثر تفتيش الناظم موسى اللالتي على أهل الحب الخالص والمعرفة التامة ليستفيد ويفيد، وذاك مقصده بركة الاجتماع، قال بعض العلماء : "أيامي أربعة لا خامس لها، يوم غنيمتي ويوم تجارتي ويوم إجارتي ويوم حسرتي، فأما يوم غنيمتي فهو يوم ألقى فيه رجلا أعلم مني فأستفيد منه، ويوم تجارتي فهو يوم ألقى فيه رجلا مثلي فيفيدني وأفيده، وأما يوم إجارتي فهو يوم ألقى فيه رجلا أجهل مني فأفيده، وأما يوم حسرتي فهو يوم لا ألقى فيه من يفيدني ولا من نفيده» وأنظر كيف تواضع هذا العالم وقال أجهل مني، ولم يقل أنا أعلم منه للتبري من الدعوى. (قيداري، 2013، صفحة 92)

كانت الطريقة التي سلكها الشيخ محمد بن سليمان عند ذكر تراجم مخطوطه أن يستشهد بما يحفظ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأقوال أئمة السلف، للبرهنة على مواقف أشياخه وانسجامها مع الكتاب والسنة سلوكا واعتقادا، وهو الذي عرفناه حافظا للقرآن الكريم بروايته ورش وقالون رسما وأداء، ومتمكنا من الحديث النبوي، وملتهما لكتاب «الإحياء» الذي صَدَّرَ مخطوطه «كعبة الطائفين» بنص من نصوصه، فقد افتتح المؤلف كتابه بمقدمة نقلها حرفيا عن أبي حامد الغزالي، وردت في أحد أبواب كتابه «الإحياء» (باب المحبة والشوق والأنس والرضا)، (الغزالي، د.ت، صفحة 407) وما فعل ذلك إلا تبركا وتيمنا بكلام الغزالي، كما زعم. (الصائم التلمساني، صفحة 5)

2.5. جغرافية المادة التراجمية في "كعبة الطائفين":

من حيث المجال الجغرافي للمادة التراجمية التي حفل بها مخطوط "كعبة الطائفين" (ق111هـ/17م) فقد ارتبطت في المقام الأول بجغرافية تلمسان بلد المؤلف الذي نشأ فيه وترعرع داخله، وبعض ما يليها من الأحواز، فأغلب من ترجم لهم من ساكنتها أو ممن نزل بها واستقر فيها.. ويمتد هذا الفضاء الجغرافي ليصل الشرق الجزائري، وتحديدا قسنطينة التي ترجم فيها لعالمها الشيخ عاشور القسنطيني، ثم يمتد لقرية مجاجة بغليزان (ينظر التعليق الخامس) (الحفناوي، 1991، الصفحات 279-289) (مفلاح، 2008، الصفحات 144-145) (سعد الله، 1981، صفحة 267، 364، 510، 511).. ثم مدينة الشلف فمدينة مستغانم... ليصل إلى الجنوب الغربي الجزائري.. ويلاص بعض الجهات من شرق المغرب الأقصى.. وأورد أيضا بعض الشيوخ التلمسانيين المستقرين في الحجاز، مثل الشيخ سيدي الحسن بن رجال.. وقد أثبت في مخطوطه ما يدنو من مائة عَلم.

تتوزع المادة التراجمية في مخطوط "كعبة الطائفين" على ثلاث فضاءات جغرافية:

- **الجغرافية المحلية:** تتمثل في حاضرة تلمسان: ترجم فيها لمتصوفة تلمسان وأوليائها وعلمائها وصلحائها، مثل شيوخه الثلاثة المباشرين، وهم على التوالي: الشيخ موسى اللالتي، الشيخ العبدلي، والشيخ بن صابر..

- **الجغرافية الوطنية:** تتمثل في الجزائر وطن الشيخ محمد بن سليمان: حيث ساق المؤلف معلومات عن أعلام الجزائر ومشايخها، كشيوخ مجاجة ومستغانم الذين زارهم المؤلف وأخذ عنهم، ومن دخل تلمسان من المدن الجزائرية الأخرى كالشيخ عاشور القسنطيني-الذي سلف ذكره-، ومن سكن الجنوب الجزائري كسيدي عبد القادر بن محمد المدعو (سيدي الشيخ) وبعض أبنائه، وسيدي أحمد التومي بن سيدي أحمد المجنوب..

ومن مستغانم نذكر على سبيل المثال الشيخ سيدي عمر بن خليفة الذي زاره الشيخ محمد بن سليمان ببلاده، يقول الشيخ المؤلف: "سافرت مع رفقة فيها غتاب فتغير حالي، فدخلت مستغانم وسألت عن الصلحاء الأحياء لأزورهم فدللت على سيدي عمر بن خليفة بالمغرواية، فما لبثت حتى جمعتني الله به عند سيدي معزوز.." (الصائم التلمساني، صفحة 177)

ومن زاوية مجاجة بنواحي مدينة غليزان التي نعتها الشيخ بـ "دار العلم والتقوى"، أشار هناك إلى شيخه سيدي عمر أترار الذي قرأ عليه عقائد السنوسي الثلاث، والأجرومية، والقرطبية.

ومن الشلف ذكر لنا الشيخ المؤلف سيدي محمد أفغول بن بوعبدل المغوفل: "لقيت الشاب الأديب العارف الليبيب العالم العامل الأتقي الأورع الفاضل سيدي محمد بن سيدي أفغول حفيد الولي الصالح سيدي بوعبدل المغوفل، نزيل شلف حفظه الله ورعاه، حيث قدم مع تلامذته لزيارة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه سنة خمسين (1050هـ)، فأضافنا ولازمته أياماً وتذاكرت معه". (قيداري، 2013، صفحة 78)

- **الجغرافية العربية:** تتمثل في الامتداد العربي الإسلامي لتراجم الشيخ محمد بن سليمان: والتي أورد منها أسماء بعض العلماء والمشايخ المغاربة، وأثبت بعض المراسلات التي كانت بينهم، أو الذين زارهم المؤلف بمدينة وجدة أو أخذ عنهم أو ممن احتك بهم حينما دخلوا تلمسان، من هؤلاء نذكر الشيخ أحمد من تافيلالت بالمغرب، حيث يقول في شأنه: "لقيت بالجامع الأعظم من تلمسان سنة إثنين وخمسين (1053هـ) شابا نحيل الجسم حسن الهيئة والسمت، فجالسته واستطعمته، فوجدته عسلا مصفى ماهرا في هذا الفن (الخلوة وتحلية القلب) فاستنسبته، فقال اسمي أحمد وبلدي تافيلالت، فقلت له: ومن هو شيخك في الطريقة المباركة، فقال: سيدي أحمد المديني.." (الصائم التلمساني، صفحة 65)

- ونذكر من هذا الصنف أيضا الشيخ سيدي أحمد بن سعيد الشريف الذي لقبه الشيخ محمد بن سليمان في مسجد زاوية العبيد بناحية فجيح بالمغرب، وأورد له الشيخ بعض الفوائد والحكم. (الصائم التلمساني، صفحة 13)

ونظيف إلى هؤلاء الشيخ الحسن بن عبد العزيز بن رجال الكوش الذي راسل المؤلف والشيخ سيدي الجيلاني بن سيدي يحي بن صفية مرات عديدة من المدينة النورة، يوصيهما بملازمة القرآن والذكر، والاجتهاد في العبادات والمجاهدات الروحية.. (الصائم التلمساني، صفحة 189)، والشيخ سيدي محمد بن أحمد بن موسى السخاوي القاطن بالمدينة المنورة، الذي نقل له أبياتا من شعره في مدح الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم جميعا. (الصائم التلمساني، صفحة 185)

3.5. تراتبية الأعلام المترجم لها وأهميتها في "كعبة الطائفين":

تتفاوت قيمة الشخصيات التي ترجم لها الشيخ محمد بن سليمان من حيث الأهمية والتأثير، فنجد منها شخصيات عَرَضِيَّة، لم تترك بصمات واضحة في محيطها، بينما توجد شخصيات مهمة؛ مثل شيخ المؤلف المباشر موسى اللاتلي، الذي يعتبر في تقديرنا رائد الشعر الشعبي الصوفي في القرن 11هـ/17م في تلمسان؛ فهو لا يقل أهمية عن فحول شعراء الملحون التلمسانيين بخاصة والجزائريين بعامة، على غرار سعيد المنداسي وابن مسايب وسيدي لخضر بن خلوف.. فقد قَدَّ له المؤلف ثروة شعرية شعبية مهمة تضع له مكانا عَليًّا في ريادة الشعر الشعبي الصوفي الجزائري في القرن 11هـ/17م.

وكذلك شيخه الإمام العبدلي الذي كان له تأثير بارز في محيطه، إن على المستوى الديني الروحي أو الاجتماعي أو السياسي، وقد اعتبر أبو القاسم سعد الله الشيخ العبدلي من المرابطين الذين لم يؤيدوا العثمانيين كل التأييد، ولم ينقموا عليهم كل النقمة، فقد كان يعظ الحكام العثمانيين، عند ما يرى منهم ما لا يليق، وكان يذهب إلى القائد محمد بن سوري في مقره يعظه، ويطلب منه مطالب في صالح أهل البلاد (سعد الله، 1981، صفحة 473) والعبدلي مجاهد شهر سيفه عاليا في سبيل دحر الإسبان عن وهران، وقد بذل جهودا حثيثة سخرها من أجل احتواء الفتنة أو الثورة التي وقعت بين أهالي تلمسان والسلطة التركية، وقد توفي في إحدى الرحلات التي كان يقوم فيها بدور الوساطة وهو على مشارف تلمسان في العقد الرابع من ق11هـ/17م. (الصائم التلمساني، الصفحات 194-195)

كان المؤلف يستطرد في الترجمة لأعلام تلمسان، خاصة أشياخه الثلاثة المباشرين؛ شيخه موسى بن علي اللاتلي وشيخه العبدلي وشيخه بن صابر، الذين كان لهم الحظ الأكبر من حجم المادة التراجمية، والذين أطلق العنان ليراعه في تراجمهم، بينما في أحايين كثيرة تجده ينحو منحى أسلوب الإيجاز والاختصار، كأن يذكر الشخصية مع جملة بسيطة تجعل القارئ يُكوِّن فكرة عامة عن مجال تخصصه ومستوى ثقافته أو يشير إلى خصلة من خصاله.

على أن المؤلف كان أحيانا يذكر في معرض حديثه، وحسب السياق حتى الشخصيات العادية، أو الهامشية، التي لم يكن لها تأثير اجتماعي أو علمي كبيرين، منوها بما تتصف به من صلاح والبركة، مما يدخل في الترجمات الإخبارية العامة، كما هو الشأن عند ترجمته لمن وصفه بالضرير الغريب سيدي بلقاسم البراهمي، وكان بمنطقة ولهاصة، معتكفا بمسجد عند سيدي طيفور، (قيداري، 2013، صفحة 116) وكما فعل أيضا مع من وصفه بالمرباط أحمد الضرير الذي كان يطوف في أسواق تلمسان، أورد له المؤلف دعاء أو حكمة كان يرددتها في الأسواق، (الصائم التلمساني، صفحة 178) وكما هو الحال مع سيدي محمد بن وارث تلميذ سيدي سعيد البوزيدي، وكان أميا زاهدا خامل الذكر، كما أثبتته المؤلف في ترجمته. (الصائم التلمساني، صفحة 10)

ونلفت النظر أن المؤلف قدم ترجمة لثلاث نساء نعتن بالصلاح والولاية عدد خصالهن، ونقل عنهن بعض الحكم والمناقب، قال في هذا السياق -على سبيل التمثيل-: "... ويؤيد هذا ما حدثتني به الولية الصادقة فاطمة بنت إبراهيم بن إبراهيم الشاذلي الحسني الأندلسية بنت نجمة بنت أحمد المالقي الأندلسي، قالت لي حفظها الله.. (الصائم التلمساني، الصفحات 152-153) وهذا ما لا نعثر عليه في كثير من كتب التراجم المشهورة، التي قلما نجدها أولت اهتماما للمرأة، وولية كانت أم عالمة.

4.5. بنية النص التراجمي في "كعبة الطائفين":

من خلال ما مر بنا من تراجم نجد أن نص التراجم في "كعبة الطائفين" يتشكل عموما من عناصر هي: اسم المترجم له ولقبه وكنيته أو أصله، ودرجته العلمية، وصفاته الخلقية، من حيث مقامه في سلم الصلاح والكرامات، فقد اجتهد المؤلف في إبراز جوانب التربية الروحية والسلوكية والتعبدية لهؤلاء الأعلام، وفي بعض الأحيان يأتي على ذكر الصفات الخلقية: فيصف لونهم وشكلهم وسمتهم، كما فعل في ترجمة شيخه وصهره الإمام سيدي العبدلي، فقد وصف لون بشرته، حيث قال في شأنه: "الشيخ العبدلي كان عربي الأصل، وبدوي المعيشة، وكان أسمر اللون ذا أدمة شديدة". (الصائم التلمساني، صفحة 142) والأمر نفسه خص به الشيخ سيدي مبارك: "كان سيدي مبارك المذكور أسمر اللون، وبزور الشيخ أبا مدين في غالب السنين وأزوره، وحين أطلب منه الدعاء يقول لي: "أصلحك الله ظاهراً وباطناً". (قيداري، 2013، صفحة 93)

5.5. الضبط التاريخي في النصوص التراجمية في "كعبة الطائفين":

من محاسن المخطوط في جانبه المتعلق بالتراجم، الدقة والضبط في تحديد تواريخ بعض هؤلاء الأعلام، كلما كان متاحا للمؤلف، عكس ما نجده في كثير من كتب التراجم؛ حيث تطغى ظاهرة التقريب، معترزين بقلة اعتناء

الناس بضبط التواريخ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكر المؤلف أسانيد علمية وطريقة لكثير من هؤلاء الأعلام، خاصة من ينتسب منهم إلى الطريقة الشاذلية، مما يجعله مصدرا في تحقيق أسانيدهم.

من شواهد المخطوط فيما يخص ضبط المترجم لهم تاريخا ومكانا في مخطوط "كعبة الطائفين"، ما نقله المؤلف حول تاريخ وفاة شيخه المباشر موسى اللالتي صاحب قصيدة "حزب العارفين"، وكان ذلك يوم آخر شهر ذي القعدة سنة 1045هـ/1635م، وأشار المؤلف إلى مكان ضريحه بالمقبرة السنوسية، وسط مدينة تلمسان على يسار قبر الشيخ السنوسي المستقبل الصاعد لجبل العباد.. (الصائم التلمساني، صفحة 271)

يشير محمد بن سليمان الصائم أن بداية الصحبة الحقيقية والمعاشرة لشيخه بن صابر بدأت مع سنة 1057هـ، قائلا: "في سنة سبع وخمسين عاشرته بل جاورته عدة أشهر.. ويقول المؤلف: قدم علينا الفقيه العلامة سيدي محمد عاشور عام أربع وخمسين (1054هـ) وكان ماهرا في العلوم.. (الصائم التلمساني، صفحة 136)

كان المؤلف من أصحاب محمد بن محمد بن مريم المديوني، ابن صاحب كتاب «البستان» ويذكر أنه توفي سنة 1053هـ.

ويحدد مؤلف "كعبة الطائفين" تاريخ وفاة رفيقه في سلوك الطريق الصوفي سيدي محمد بن بوعبدل في قوله: "توفي نسيبي وحبيبي وصفي وأخي من الله ثم من الناظم-موسى اللالتي- سيدي محمد بن بوعبدل بن العباس الحسني المجاور لضريح الغوث أبي مدين والأئمة بجامعة، نفعا الله بجمعهم في جمادى سنة ست وستين [1066هـ]". (الصائم التلمساني، الصفحات 222-107)

6. مصادر المادة التراجمية في مخطوط "كعبة الطائفين" وثقتها:

المادة التراجمية المناقبية الموجودة حول تلك الأعلام في الغالب الأعم لا مصدر لها سوى المؤلف، فهو يخبرنا عن جوانب من تكوينها العلمي والثقافي انطلاقا من احتكاكه المباشر بها، وأحيانا بواسطة الشيوخ الرواة الذين قدموا له هذه المادة وأفادوه بها، كشييوخه المباشرين أو غير المباشرين، وحتى من أفراد عائلته كوالده وشقيقه محمد القاضي.. مما يؤهل كتاب "كعبة الطائفين" ليكون مصدرا وأصلا لا نظير له في تراجم هؤلاء الأعلام.

وعلى العموم استقى المؤلف محمد بن سليمان أخبار تراجمه من أربعة مصادر، هي: الرواية الشخصية المباشرة، والرواية الشفوية لمُخبريه (قَرَبَ سندُها أو بَعُدَ). هذان المصدران الأخيران كان لهما النصيب الأكبر في مخطوطه، ومصدر ثالث يتمثل في الأخبار التي رصدتها دون مصدر محدد (مصدر مجهول)، ومصدر رابع، تمثل فيما انتهى إلى يد المؤلف من التقايد والرسائل المخطوطة.

بالنسبة للرواية الشخصية المباشرة: اعتمد المؤلف على احتكاكه المباشر في نقل أخبار المترجم لهم، ورصد بعض المعلومات الشخصية (الميدانية) عنهم، وغالبا ما يورد المعلومات عنهم بالأساليب التالية:

أخبرني أو أفادني الشيخ؛ حدثني سيدي؛ قال لي؛ جالستُ أخي؛ ذَكَرَ لنا (الصائم التلمساني، الصفحات 17-170-121-129).

ومن أمثلة الرواية الشفوية لمخبريه، يمكننا تأشير ثلاثة نماذج:

1.6. الرواية ذات السند القريب:

وهي التي استمد محمد بن سليمان الصائم أخبارها من شيوخه أو مخبريه الذين سمعوها من رواة آخرين أو شاهدها عيانا، وتأتي في الغالب مسبقة بعبارات: "أخبرني فلان عن الشيخ"، "وصف لي فلان أن فلان"، "سألت عن فلان".

من أمثلة ذلك ما نقله الشيخ محمد بن سليمان عن العلامة التلمساني المفتي سعيد المقري -سالف الذكر- عن نجله الفقيه محمد بن سعيد المقري بشكل مباشر من معلومات تتعلق بأخبار والده وسعة علمه..

ومن هذه النماذج قوله: "سألت عن هذا الرجل الشاب الأديب الأتقي الأريب سيدي الحاج إبراهيم ولد الشيخ عبد القادر بن محمد"، ومن ذلك قوله: "ويحتمل أن يكون قصد به والد سيدي إبراهيم بونقاب، وهو معروف من صلحاء بني قومي.. أخبرني بذلك من يعرفه حق المعرفة"، وقوله: "حدثنا شيخنا سيدي بلقاسم بن صابر أنه سمع من شيخه سيدي عبد القادر بن محمد يقول: أوقات المريد أربعة: أصول وفصول وحصول ومناجاة.."، وقوله: "حكى لنا بعض تلامذة الناظم رحمه الله، أنه أقسم لهم بعزة الله على أن الله عرّفني أزقة عرشه العظيم زقة زقة كما عرفكم أنتم أزقة بلدتكم هذه زقة زقة". (الصائم التلمساني، الصفحات 19-144-186)

2.6. الرواية غير المباشرة ذات السند البعيد:

وقد وظفها المؤلف هاهنا في نقل أخبار الشيوخ المعاصرين له الذين لم يلتق بهم لبعد المسافة، أو لرصد أخبار من لم يعاصروهم، لكونهم انتقلوا قبله إلى الدار الأخرى بزمان بعد أو قرب، وتأتي وفق العبارات التالية "أخبرني فلان عن فلان عن فلان" "أفادني فلان عن فلان"، "نقل لي بعض الأشياخ عن..". ومما ورد من ذلك في متن مخطوط "كعبة الطائفين" نسوق هذين المثالين، يقول المؤلف: ".. وبعد هذا قدم علينا الشاب الأرضي حفيد سيدي الحاج بن عامر، فذكر لنا أنه أيام توفي الشيخ سيدي موسى قال له بعض الصالحين ببلده في الحوض من اليعقوبية.. ويقول أيضا: ".. وبنحو هذا الورد أفادني سيدي محمد العامري الحمداني عن شيخه سيدي عبد الرحمن بن عبد الله

الحساني تلقيا وإجازة فيه، وفي السبحة والمشابكة على نحو ما أفاده شيخه المذكور بسلسلته التازية.. "ونقل لي بعضُ أشياخي من بعض الصالحين: أن الزائر يقرأ الفاتحة عشرا ثم الإخلاص عشرا ثم التصلية عشرا..". (الصائم التلمساني، الصفحات 17-170).

3.6. الأخبار التي رصدها دون مصدر محدد:

وحضور هذا النوع من الأخبار هو من القلة بمكان مقارنة بالنموذجين السابقين، ووردت عباراتها بصيغة المبني للمجهول مثل قوله: "أُخْبِرْتُ عن فلان"، أو "حُكِيَ لي عن فلان"، أو يبدأها بصيغ من قبيل: "أخبرني من حضر" أو "أخبرني بعض من شاهده".. يقول المؤلف في هذا الصدد: حُكِيَ لنا عن الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد السماحي (قيداري، 2013، صفحة 56) (Rinn, 1884, pp. 349-351) (Millad, 1986, pp. 6-8) أنه حين خرج من الخلوة وامتنع معه الذكر، أدخل أصبعه في العسل ولعقه، فلما انتبه قال لمن حضر: يا ولدي والله إن ذكر الله عندي أطيب من هذا العسل وأبْنُ بشيء كثير. (الصائم التلمساني، صفحة 157)

4.6. المصادر الخطية:

وهو ما وقع في يد الشيخ المؤلف من التقايد والرسائل المخطوطة، كان المؤلف كثيرا ما يشير في مخطوطه إلى بعض الرسائل الخطية والتقايد العائلية التي اطلع عليها، وإلى بعض النسخ الخطية التي نقل عنها (إما بخط مؤلفها المباشر أو بخط نقل عن النسخة الأصلية)، وهذا توثيق له أهميته في ميدان "تحقيق النصوص"، حيث يصبح كتاب «كعبة الطائفين» مصدرا مهما في إثبات النصوص القديمة وتحقيقها، وإعادة بعثها من جديد، خاصة إذا كانت هذه النصوص التراثية اليوم من بين مصادرها الأساسية النادرة، أو التي ضاع أغلبها واندرَس.

كان المؤلف يشير إلى هذه المصادر الخطية التي اعتمدها بعبارات من قبيل: (..انتهى، من خط نقل عن خط الونشريسي)، (..ومما نقل من خط الشيخ السنوسي).. (الصائم التلمساني، الصفحات 187-191)

ومن أمثلة هذا النوع من المصادر الخطية، نذكر هذا المثال على سبيل الذكر، يقول الشيخ محمد بن سليمان: "ومن أجل ما يدعى به وقتئذ ما نقله من خط شيخنا الولي الصالح سيدي العبدلي رضي الله عنه..". (الصائم التلمساني، صفحة 118)

في إطار إعطاء المؤلف محمد بن سليمان نوعا من الموضوعية والثقة على تلك الروايات الخاصة بتراجمه كان في كثير من المرات يذكر تاريخ تلك المواقف والمرويات، أو يحدد المجال الجغرافي الذي تلقى فيه الخبر، أو يشير إلى موضوعية وصلاح الشخصية التي تلقى عنها الخبر أو الرواية. (الصائم التلمساني، صفحة 243) (قيداري، 2013، الصفحات 110-116)

7- الخاتمة:

يمثل مخطوط «كعبة الطائفين» اهتمام أهل تلمسان بكتابة تاريخهم ومآثر أعلامهم في فترة من فترات تاريخ الجزائر العثمانية، وتحديدًا في بحر القرن (11هـ/17م) الذي اُتسم بالركود العلمي وقلة الإنتاج والكتابة. وهو من المصادر المهمة في تاريخ الجزائر بعامة والمجتمع التلمساني بخاصة، جاء ليغطي فترة دقيقة من تاريخنا، تعد في نفس الوقت فقيرة من حيث المصادر التاريخية، مما يكسبه أهمية خاصة، وتحديدًا في باب كتب التراجم والسير التلمسانية الجزائرية، وهو في هذا السياق الحلقة الثانية في كتب التراجم والسير التلمسانية بعد كتاب "البستان" لابن مريم التلمساني (ق10هـ/16م)، ومن هنا تبدو قيمته في هذا الباب.

نخلص من خلال هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

- يمدنا المخطوط بمادة تراجمية ومناقبية ضخمة غطت القرن (ق11هـ/17م) على امتداده،
- يبدو المخطوط في جانبه المتعلق بالتراجم أقرب إلى ما يسمّى بـ: الثبّت أو الفهرسة أو المشيخة، حيث ذكر لنا المؤلف محمد بن سليمان الكثير من المشايخ والعلماء والصلحاء، الذين أخذ عنهم، أو سمع منهم، أو سمع ممن سمع منهم،
- إن المادة التراجمية التي احتوى عليها المخطوط ستغري الباحث المؤرخ بما تحتويه من معلومات تاريخية متنوعة، وقعت أحداثها في عصر المؤلف، وجاءت على هامش المادة المناقبية، وهي معطيات لها أهميتها البالغة بالنسبة للمؤرخين.
- المادة العلمية الموجودة حول تلك الأعلام في الغالب الأعم لا مصدر لها سوى المؤلف، مما يؤهل كتاب "كعبة الطائفين" ليكون مصدراً وأصلاً لا نظير له في تراجم هؤلاء الأعلام،
- جاءت بنية المخطوط على ثلاثة أقسام: قسم أول خصصه المؤلف لذكر أهل الصلاح؛ وقسم ثاني: ذكر فيه أهل الطلاح؛ وقسم ثالث أفرده لذكر أهل الصلاح المتحققين، "حزب العارفين"،
- كانت الألقاب والنعوت التي يصبغها على تراجمه مبررة، وتأتي في النص المناقبي متوافقة مع الخلفية العلمية والسلوكية لأعلامه،
- من حيث المجال الجغرافي للمادة التراجمية للمخطوط، فقد توزعت بين ثلاث فضاءات: الامتداد الجغرافي المحلي (أعلام تلمسان)، الامتداد الجغرافي الوطني (أعلام الجزائر)، الامتداد العربي (الأعلام المغاربة..)،

- الشخصيات المترجم لها وأهميتها، فهي تتفاوت قيمتها من حيث الأهمية والتأثير، فمنها شخصيات عرضية، لم تترك بصمات واضحة في محيطها، بينما توجد شخصيات مهمة، مثل شيوخه الثلاثة المباشرين، موسى اللاتلي، العبدلي، بن صابر،
- قدم المؤلف ترجمة لثلاث نساء نعتنهن بالصلاح والولاية عدد خصالهن، ونقل لهن بعض الحكم والمناقب، وهذا ما لا نعثر عليه في كثير من كتب التراجم المشهورة،
- النص التراجمي جمع أحيانا بين الصفات الخُلقية والصفات الخُلقية لبعض من ترجم لهم، فيصف لونهم وشكلهم وسمّتهم، وهذه اللفتة يقلّ نظيرها في كثير من كتب السير،
- من محاسن المخطوط في الجانب المتعلق بالتراجم، الدقة والضبط في تحديد تواريخ بعض هؤلاء الأعلام، كلما كان متاحا للمؤلف، عكس ما نجده في كثير من كتب التراجم، حيث تغطي ظاهرة التقريب،
- في مخطوط "كعبة الطائفين" أربعة مصادر استقى منها المؤلف أخباره، هي: الرواية الشخصية المباشرة، والرواية الشفوية لمخبريه (قرب سندها أوبعد). والمصدرين الأخيرين كان لهما النصيب الأكبر في مخطوطه، ومصدر ثالث يتمثل في الأخبار التي رصدها دون مصدر محدد، ومصدر رابع تمثّل فيما انتهى إلى يد المؤلف من التقاييد والرسائل المخطوطة التي اطلع عليها.

التعليقات:

- 1- أشار عبد الكريم الفكون أيضا وهو شيخ السلفية في عصره (ق11هـ/17م) في كتابه «منشور الهداية» إلى ثورة محمد بن أحمد السوسي المغربي، وذكر أحداث هذه الثورة أيضا ابن المفتي حسين بن رجب شاوش في كتابه: "تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها".
- 2- وصلت هذه السجلات العلمية بين الشيخين إلى حدّ الخصومة، ذكرتها العديد من المصادر.
- 3- كان الشيخ محمد بن سليمان يزور تلك المدن إما طلبا للعلم أو سعيا وراء الصلحاء لنيل الحكمة والبركة، أو للجهاد (ثغور وهران)، أو لأغراض تجارية.
- 4- عاشور القسنطيني من تلاميذ الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني، كان يتنقل بين قسنطينة وتلمسان وتونس والحجاز.. انتصب للتدريس، واهتم بالرحلة والتاريخ.
- 5- تقع مجاجة بنواحي مدينة غليزان، أسس بها الشيخ سيدي محمد بن علي المجاجي (ولد سنة 945هـ/1538م) زاوية "مجاجة" لنشر العلم، وكان يقصدها طلاب العلم من كل جهات الوطن،

تخرج منها عل سبيل الذكر سعيد قدورة الذي تولى الافتاء المالكي بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة، اشتهر مؤسسها المعروف بـ (ابهلول) بالعلم والتصوف والكرم ومحاربة الغزاة الإسبان، وكانت زاويته عبارة عن رباط ضد الأعداء، يذكر أنه أطلع ثلاثمئة مجاهد كانوا على ثغر تنس، قتل سيدي محمد بن علي العالم الزاهد سنة (1002 هـ/1594م) بتحريض من الأتراك. ترجم له الشيخ العربي المشرفي في كتابه الموسوم: «ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة». وذكره محمد بن سليمان أيضا في الجزء الثاني من كتابه هذا، ونقل من خطه بعض الفوائد.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن المفتي، ح. ب. (2009). *تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها* (تح. ف. كعوان، الجزائر: بيت الحكمة).
2. ابن مريم، أ. أ. (1986). *البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
3. الحفناوي، أ. أ. (1991). *تعريف الخلف برجال السلف* (ج2). الجزائر: موفم للنشر.
4. السائح دحماني، ز. (2014). *الأسمائية في اللسانيات الحديثة بين النظرية والتطبيق*. تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.
5. الصائم التلمساني، م. ب. *كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين* (مخطوط) (ج1-3). باريس: المكتبة الوطنية، قسم الشرقيات رقم (2460).
6. الغزالي، أ. ح. (د.ت). *إحياء علوم الدين* (ج4). القاهرة: المكتبة التوفيقية.
7. الكتاني، ع. أ. (1982). *فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات* (ج1) تح. إ. عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
8. المقري، أ. (1983). *روضة الآس العاطرة الأنفاس* (تح. ع. أ. منصور، الرباط: المطبعة الملكية).
9. المهدي الفاسي، م. (1994). *ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع* (تح. ع. أ. مراد، المغرب).

10. بوزيان، ب. ع. (1987). *واحة فجيج تاريخ وأعلام*. المغرب: ذون دار نشر.
11. سعد الله، أ. أ. (1981). *تاريخ الجزائر الثقافي* (ج1). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والإشهار.
12. سعد الله، أ. أ. (1981). *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر* (ج1). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
13. سعد الله، أ. أ. (1986). *شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، داعية السلفية*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
14. قيداري، ق. (2013). *كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين*، محمد بن سليمان الصائم التلمساني، دراسة وتحقيق. (ج1) تلمسان: رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة تلمسان.
15. مفلح، م. (2008). *أعلام من منطقة غليزان، أعلام التصوف، شعراء الملحون*. الجزائر: دار المعرفة.
16. Millad, A. (1986). *Ayaquouta , poème mystique de Sidi Cheikh- Essai d'édition critique et étude du texte selon la tradition Soufi*. Alger : entreprise nationale du livre.
17. Rinn, L. (1884). *Marabouts et Khouan-Etude sur l'islam en Algérie*. Alger: Adolphe Jourdan, Librairie éditeurs.